فادي سعد

على مقاعد الليسيه

نادك دمثلي فيما أسمعك،
فاذهب، فدك الشوق،
قلبي معك

(عمر أبو ريشة)

حين يموت أحد أحبابنا، تعود بنا الذاكرة تلقائيا الى بداية علاقتنا به، أي أول لقاء وأول انسجام. مشكلتي مع سمير قصير أنني لا أذكر مبنى التقينا. كنا في الرابعة، في صف الحضانة في الليسيه الفرنسية، والعلاقة لم تنقطع منذ عام واحد واربعين عاماً، رغم مشاغل الدنيا والمسافات الجغرافية والهموم والاقلالات. لم أتحدث عن الصحافي الجسور، والكاتب الملتزم، والاستاذ المتميز، فالكثيرون من اصحابه يجيدون ذلك اكثر مني، بل عن سمير، صديق العمر.

لم يكن سمير قصير شديد التواضع. لا بد أن يبتسم هنا كل من عرفه من قريب او بعيد، لانه كان أول المتعلمين ممن كان يسميه "ذاته المتضخمة". لكن غروره الشعير كان لا يستقيم فهم حقيقة الجريمة التي أودت بسمير قصير، إلا بربطها بالمشهد السياسي والاجتماعي للمنطقة، وتحولاته المتلاحقة والمتسارعة، والأهم، تلك، المتوقعة، وكان سمير قصير قد أصبح، وبوعي وقصدية كاملة منه، أحد أبرز مهندسي هذه التحولات وصانعيها، حتى أنه يمكن التجرؤ، والقول، ان تلك التحولات لاستحت في كثير من تفاصيلها استشرافاته ورؤاه.

سمير قصير، وأقرانه الحالمون بالفجر، كان دائماً مشبوهاً لدى زعماء التخريب، مشبوهاً في تورطه بالأمل بتغيير هذه الأوضاع، وكان هو قد تجاوز حدود الأنفاس والتأسيس، الى الاعلان الصريح عن تورطه هذا، وعزمه على تعميم حالي التورط بعد هي المسافات التي اعتقدوا أنهم يتسوا زرعها وضرعها حتى لا تنتج سوى الرماد.

غير أن سمير قصير كان أكثر من حالم أيضاً، لذا لم تنكسر عزيمته عند أول عائق وضعوه في طريقه، ولا عند مراتكبات المعوقات في ما بعد، واتضح أنه صاحب مشروع سياسي وثقافي، جعله بانساج الشرع العربي، وامداؤه لا تقف عند حدود ما أطلق عليه، ما، من تجاوز ذلك الى التصميم على تغيير هيمنة الواقع العربي بكل تفاصيله ومكوناته الحالية، لتصل الى دمقرطة ديموقراطية وعلمنة لبنان، وتحرير فلسطين. وكان يعتبر ان هذه العناوين هي بوابتنا الى الخلاص من كل الإشكاليات التي تواجهنا في المشرق، وذلك انطلاقا من خلفية وفهم عميق لتاريخ المنطقة وسوسيولوجيتها، وتداخلاتها وتخارجاتها أيضاً.

مشروع سمير قصير بالموضوعية الصارمة، فهو كما لم تدغدغه يوما احلام الشهرة والمال والمنصب، رفض أن يساير هوى، أو نزوة ما، حتى ولو كان طريقاً سهلا للوصول الى ما يتمناه الكثيرون، إنطلاقا من اقتناعاته بان الانتهازية السياسية لا تتماشى مع منطقه القائم على رؤيوية بعيدة المدى والمتأسس أيضا على خلفية تاريخية عميقة.

ولم يشرح موضوعية سمير قصير، سوى إنجازه للاستباقية بالحرية. لذا، أبناء مدافعاً شرساً عن العمال السوريين وحقهم في معاملة كريمة، ومن خلالهم عن كل المهمشين والمسحوقين في المنطقة. ولم يوازِ موقفه هذا، سوى نضاله الشرس ضد الديكتاتوريات ورموزها وأساليبها. ولكن في كل الاحوال، كان سمير قصير يدافع عن نقاء النموذج اللبناني وسموه، والذي كان يفضله مدخلا أولياً في بنيان النموذج العربي الذي يريده شامخاً وصحيحاً.

والحال، فإن سمير قصير هو ابن مشروع غربي مجروح، طالع لتوه من أتون حروب أهلية، وانقسامات طائفية وعرقية، ولكنه لا يزال يناضل للخروج من ظلام أنظمة سياسية ديكتاتورية قمعية وأنظمة اجتماعية قهرية ومتخلفة، وهذه وتلك، تتلفع بعباءة منظومة ثقافية وقيمية معتزة وبالية.

يدرك قتلة سمير قصير أنهم باغتياله، إنما يسعون الى إزاحة مشروع نهضوي متكامل، بدأت ملامحه بالظهور منذ مدايبت بمصرة، وتم تجسيده في 14 آذار في ساحات بيروت، وكذلك في المحراب الاجتماعي والسياسي لشعوب المنطقة من القاهرة الى دمشق، وأهم مكونات هذا المشروع، الحداثة والعصرنة، وما تتضمنانه من قيم الديموقراطية والعلمانية والتسامح، وهو تأتيا مشروع مضاد للمشاريع التي أوجدتهم (القتلة)، وساهمت في استمرارهم، والقائمة على توليفة عجيبة من بيروقراطيات قومجية ودينية، وعلى منطق التذويب وتعظيم حالات الانفصام.

إن الوفاء لسمير قصير ومشروعه، الذي هو مشروع نهضتنا في النهاية، يتطلب التيقظ الدائم لمشاريع الظلام التي تحاول العودة على أنقاض جثث الشرفاء ودمائهم، ويتطلب وقوفاً في وجه قتلة سمير. وما يسير إن لم نفعل ذلك، نكون شهود زور على الغدر بلد، ونكون كمن قدم قربانا لمعبوده تقرباً وزلفاً، والأسوأ من هذا وذاك، نكون كمن يعقد صلحاً قاسماً مع قتلتك، دمك مقابل الحفاظ على دمائنا ■

غازي دحمان

طريقتنا في الوفاء

الصداقات بالحميمية نفسها التي جمعته، ولا تزال تذهل الصحافيين من حولنا.

عزيزي سمير، اشد ما سافتقد اليه هو قهوتنا الصباحية في منزلي الباريسي، حين كنا نلتقي مجدداً كصبيين في ملعب المدرسة، وبريق عينيك الساخرتين كلي لحظة من اطلاق الرد الذي سيخرس محاورك، وضحكة جبزيل حين تكون الى جانبها، ونكاتك السخيفة، واتفاقنا المفتعة التي لا يلحظها احد سواك، وحنانك الخفي. ستوحشنا يا رجل.

لنا مناكحة ان هناك صبيا في الثامنة على مقاعد الليسيه أي عمراً، يتتبع اخبارك باهتمام، ويحاول فهم ما كتبت، وما يُكتب عنك، لأنه ادرك فجأة بعد مصرعك انه لا بد ان يكون صحافيا حين يكبر، ليقوم بثورة اية ٦٨، وانتفاضة فلسطين، وتظاهرة الرابع عشر من آذار، وغيرها وغيرها، صارخا في وجه الوحش: أنا شعبي أكبر يا عسكر ■

الحصيرة الأجل (جداً)، ظهر على جدران بيروت شعار سرعان ما إستعرى اثناء سهر قصير: "أنا شعبي أكبر يا عسكر"، فطار عقله لجمال العبارة، ولأنه، وهذا هو الأهم بالطبع، لم يبدعها بنفسه. وكان الفتى الناشئ حدس، بحاسيته المفرطة، وكان حساسا الى حد الجرح المفتوح على الدوام، بالمعركة التي تنتظره لاحقاً مع عسكر الاجهزة الامنية.

ظل سمير قصير في سنوات الرشد شديد الحنين الى سنوات الطفولة في الليسيه، ونجح في البقاء على علاقات وطيدة بعدد من زملائه القدامى، فتشكلت حوله حوقة من الرفاق الذين عرفهم ما بين سن الرابعة والعاشرة، مع بعض "الدخلاء" الذين صادفهم بعد ذلك ببضع سنين. وحين عاد من فرنسا عند انتهاء الحرب الاهلية، لم يكن من الممكن ان لا يسكن في جوار الليسيه، ولم يبحث عن أي مكان آخر. واستمرت هذه الصداقات بالحميمية نفسها الى حين مماته، ولا تزال تذهل الصحافيين من حولنا.

عزيزي سمير، اشد ما سافتقد اليه هو قهوتنا الصباحية في منزلي الباريسي، حين كنا نلتقي مجدداً كصبيين في ملعب المدرسة، وبريق عينيك الساخرتين كلي لحظة من اطلاق الرد الذي سيخرس محاورك، وضحكة جبزيل حين تكون الى جانبها، ونكاتك السخيفة، واتفاقنا المفتعة التي لا يلحظها احد سواك، وحنانك الخفي. ستوحشنا يا رجل.

لنا مناكحة ان هناك صبيا في الثامنة على مقاعد الليسيه أي عمراً، يتتبع اخبارك باهتمام، ويحاول فهم ما كتبت، وما يُكتب عنك، لأنه ادرك فجأة بعد مصرعك انه لا بد ان يكون صحافيا حين يكبر، ليقوم بثورة اية ٦٨، وانتفاضة فلسطين، وتظاهرة الرابع عشر من آذار، وغيرها وغيرها، صارخا في وجه الوحش: أنا شعبي أكبر يا عسكر ■

رضوان جودت زيادة

سلام من "ربيع دمشق"

كان سمير قصير أول من وجه التحية إلى بيان المثقفين السوريين الـ٩٩، الذي دشّن عملياً عملية البيانات والعرائض المطلبية باسم المثقفين السوريين. لقد كتب قصير حينها في "النهار" تحت عنوان "سوريا تحيا": "في البدء تتوجب التحية، بل تسع وتسعون تحية. فقد يغدو مضمون البيان من أجل التعددية والحريات الذي اجتمع على توقيعه تسعة وتسعون مثقفاً سوريا، بمثابة تحصيل حاصل". واستبشر بالغد "الذي تكون فيه مفاهيم دولة القانون وحقوق الإنسان والتعددية والديموقراطية والحريات العامة كلاماً عادياً في سوريا، وهو تحديداً ما يفرض الاعتراف ليس الـ٩٩ رمزية، وثانياً سياسية، فالمثقفاً ".

ثم اعتبر أن ما أعلنه "المثقفون السوريون في بيانهم هو قبل كل شيء رغبة في أن يسري على بلدهم قانون الحياة. والأحلى أنهم، عندما يعلنون ذلك، يكونون صدى الجيل العائد، وصورة سوريا بهي تحيا، فعلا معهم التحية".

لقد كان لسمير قصير علاقة خاصة مع "الحدث الديموقراطي" في سوريا الذي كان الأكثر كثافة فيه من بين المثقفين اللبنانيين، بل وحتى عندما انكفأ بعض الديموقراطيين اللبنانيين عن أنفسهم خاصة بعد الانسحاب السوري "الكامل" من لبنان، وكثر الحديث عدنى عدم التدخل اللبناني في الشؤون السورية حتى من صحافتنا التي تعتبر المنبر الوحيد للديموقراطيين السوريين، فإن قصير بدا أكثر الأصوات مطالبة بأن الاستقلال الحقيقي للبنان يفترض الديموقراطية الحقيقية في سوريا.

يكفي ما سطره قصير في مقاله الأخير قبل اغتياله بعنوان "الخطأ بعد الخطأ" بتاريخ 27/5/2005 حيث كان جريئاً عندما قارن نهايات السياسة السورية في عهد "التطوير والتحديث"، حيث "بعد مرور كل هذه الأعوام، بدا أن القيمين الحاليين على الحكم لا يزالون يرفضون فتح باب الحوار الوطني مع معارضيهم والمصالحة مع مجتمعهم. وكأنه لا يكفيه بقاء النائبين رياض سيف ومأمون الحمصي في السجن، فضلاً عن غياب دلية ورفاقه من الناشطين في المجتمع المدني. فما هو حكم بشار أسد يطرق على منتدى جمال الاتاسي، ويعتقل رفسته وأعضاء مجلس إدارته للتذكير إن منتدى الاتاسي كان الوحيد المتبقي من المنتديات التي أدهشت عام 2000 وأقفلت تباعاً على يد أجهزة الأمن".

وأشار بتعجّم إلى ما نشرته جريدة "الثورة" من أنه تمّ إلغاء الموافقة الأمنية المسبقة في شأن 67 "حالة"، حيث كانت "اللائحة المنشورة على التخلف الذي فرضه الطوفان المباغرائي على حياة السوريين العامة وحتى الخاصة".

ليهم، فقد الديموقراطيون السوريون يفقدون أحد أهم المنابر الخارجية أكثر مما فقد اللبنانيون متحدثاً جريئاً وصادقاً باسمهم وباسم "انتفاضة الاستقلال" التي كان جزء رئيسياً.

باغتياله بهذه الطريقة الإجرامية المعمنة في العنف الأعمى يريد سوريا أبعد بكثير من لبنان. إنهما رسائل إلى الديموقراطيين في العالم العربي كافة، مفادها أن الديموقراطية والحرية الهوم أصبحتا في حاجة للدماء لتفادي عنعمار، ولم تعد تكفيهما الأقلام والأحبار.

ألم يقل قديماً أحمد شوقي "وللحرية الحمراء بابٌ بكل يد مضرجةٍ يدق !! ■